الاستبداد المستنير للشرق:
علاقة الرواية بالتاريخ في بناء المتخيل الاستشراقي

أ :توفيق شابو

جامعة لونيسي علي البليدة 2

ملخص:

مثلت الكتابة الروائية أحد المرجعيات الأساسية في تطويع التاريخ، ورسم العلاقة بين الغرب وباقي العالم من جهة، وللغرب مع الشرق من جهة أخرى. حيث شكلت بذالك نصا ثقافيا وأسست للوعي الإستشراقي، الذي يختزن محمولات الخطاب الغربي نحو الآخر الشرقي بما يحمله من تحيزات وإدعاءات على مستوى التاريخ والقيم والثقافة. حيث مكّن هذا الفعل لنوع من الاستبداد المعرفي الملتبس بالقيم التنويرية. فقدت عملت الرواية على حشد الصور والقيم ،انطلاقا من مرجعيات المركزية الغربية والتي كان التنوير قاعدتها الأساسية لتشكل بذالك جزئية من السرديات الكبرى التي سعت إلى إحتواء تاريخ الآخر وثقافته ومصيره.ونحاول في مقالنا هذا رصد أشكال الإستبداد النصي الذي مورس على الشرق وفق القياسات التي نقلها الرحالة والمغامريين الاوربيين نحو الشرق عبرالتخييل الأدبي وماحمله من تحيزات.

Abstracts:

Writing fiction and novel formed one of the basic referances for the rebuilding of the human history and also it halped build the relationship betwen the west and the east.this act has halped by the european enlightement values.which reprisent in the writings travlers who transfer wrong image of this nations peopeles and cultures.in this articl we are trying to determine their practices on the level of this texts.

مدخـــــل:

شكل النقاش الفكري الدائر حول موضوع العلاقة بين الغرب والشرق اهتمام عديد المفكرين والأدباء والسياسيين، لما يحمله هذا الموضوع من تشعبات لم تطل الجانب المادي فحسب ،بقدر ماتجاوز إلى الجوانب النصوصية بوصفها حملت قدرا كبير من محددات هذه العلاقة وتفرعاتها، كون هذه النصوص أخفت في طياتها الحقيقة في النظرة الغربية للآخرين ونمط ذهنيتهم، حيث راوحت بين الحقيقة قليلا والزيف في كثر من الأحيان، خاصة في الفترة التي شهدت تحول أوروبا نحو آخرها إنطلاقا من نهضتها الفكرية والعقلية بدءا من عصر الأنوار، وما تكشّف عن هذا العصر من تغيرات داخلية برزت فيه العقلانية الغربية التي حاولت تصدير فعل التنوير فيما بعد على الآخر، أي تصدير هذه العقلانية رغم ما يكتنف هذا الزعم من فجوات تكشفت عبر الحقب التاريخية اللاحقة، في علاقة الغرب بغيره والتي عكس الإستعمار أسوأ مراحله. يصبح الإستبداد المستنير وفق هذه الرؤية أحد الفعاليات المهمة التي حاول الغرب تمرريها مع جملة الفعاليات المادية الأخرى ذات الطبيعة المتعالية سياسيا، وإقتصاديا، وتاريخيا ،طبقا للشروط القيمية الغربية وهنا يحق التساؤل عن مواقع التاريخية الحقيقية التي غيبتها الهيمنة الخطابية لهذه المرويات، و مدى فعل تحيزاتها على مستوى الواقع والتاريخ ،حيث يبدو التاريخ بهذا المعنى هو التاريخ الذي أنتجه الغرب لا التاريخ الذي هو معطى إنساني تشترك في جميع الأمم والحضارات.

الرواية كنظام خطابي:

لقد تفاعلت الخطابات المنتجة عبر مراحل تاريخية طويلة،حيث أصبحت مخزونا كبيرا يحشد في طياته آليات مكّنت لنفسها تمكينا سلطويا، وبذالك أظيفت إلى المراكز والمؤسسات المعرفية الأخرى، لتعطي للذات لقب الحداثة

والعقلانية، وتمنح للأطراف الأخرى لقب البدائية واللاعقلانية. فالمعرفة ليست بريئة بل إنها ترتبط بعمق مع عمليات السلطة وهيمنتها،ثم إن تتبع هذه الخطابات إنما يسمح بتتبع الصلات بين الظاهر والخفي في الأفكار والمؤسسات، بل **إنه يسمح برؤية كيفية عملها من خلال اللغة والأدب والثقافة والمؤسسات**[1]. وبذالك يمكن إبراز تكشّفات هذه الخطابات وإدعاءاتها، لتتضح من خلالها تأثيرات الثقافة على حساب المؤسسات السياسية والاقتصادية لدى الغرب.ولا يمكن فهم التأثيرات الثقافية إلا بقياسها على السياقات التي أنتجت خلالها،وتفاعلت فيها. وتمثل أوربا تاريخيا الحاضنة الأولى لهذه الثقافة التي خوّلت لنفسها تعضيد ما هو أيديولوجي و ثقافي- و المتمثل في شتى أنواع الخطابات- مع ما هو مادي وعسكري.

إذن لا يمكن الحكم على أن الموضوعية هي الأرضية الوحيدة التي تنتج من خلالها الممارسات الخطابية، بل إن هذه الممارسات يكتنفها الكثير من التدخلات الإعتباطية التكوينية والتنشيئية، لذلك فإن اللغة كانت الملاذ الآمن، والسبيل الأمثل لتستّر ماهو إيديولوجي وماهو ذاتي، لما تحمله اللغة من خاصيات التزييف، والتحويل، والتأويل. وهي المواقع التي يتدخل فيها ماهو إيديولوجي وذاتي بما هو موضوعي. فالأدب بوصفه فن لغوي وتشكيل رمزي فإنه يمتلك القدرة على التوسط بين ماهو حقيقي وبين ماهو خيالي، فهو مجال خصب لإنتاج التفاعلات الإيديولوجية مع سياقاتها التاريخية والإجتماعية. لأن مايميز العمل التخييلي ليس مجرد حضور لتنوع الملفوظات وإنما **كيفية هذا الحضور لتنوع الملفوظات وعلاقة ذالك باشكال حضور المؤلف والذات الكاتبة** (2). أي أن الكتابة الروائية تستطيع تورية مقصدياتها عبر اللعب اللفظي، بل هي وسيلة مهمة للإستيلاء على الوسائل المهيمنة للتمثيل وقلب مواقعها.لأن دينامية التواصل الإنساني عبر اللغة وصورها هي التي تكسب الكلمات دلالاتها وتساهم في توسيع حقول معانيها وإستعمالاتها،وذالك بارتوائها من مختلف الدوائر والتصورات السياسية والإجتماعية والثقافية.

إن مايميز عملية التمثيل هو خضوعها لقوانين داخلية نصية حيث تكتسب اللغة حيويتها بإنغماسها داخل عوالمها الفسيحة، فحسب مايذهب اليه **ميخائيل باختين** في توصيف الفعل الروائي **فإن ملفوظا حيا ينبثق بدلالة، في لحظة تاريخية وداخل بيئة إجتماعية لايمكن ان يفلت من ملامسة آلاف الأسلاك الحوارية الحية المنسوجة من لدن الوعي الاجتماعي- الإيديولوجي القائم حول موضوع ذالك الملفوظ معتما من جهة ومضاءا من جانب أخر،والخطاب يدخل في هذه اللعبة المعقدة أي لعبة الواضح والغامض ويتشبّع منها** [3] بمعنى أنه على المستوى الفني تتجلى نظم الكتابة الأدبية باشتمالها على مستويات القول،وطبقات الدلالة وبنيات الإحالة المرجعية، عبر النسيج السردي الذي تتقاطع فيه عناصر التخييل والرموز،وينتج هذا كله عبر امتدادات النص في الثقافة، والتاريخ، و الطبقات الاجتماعية. لتمنح النص أبعاده التأويلية و تتحقق فيه الدلالات وتُرصد،وذالك بإعطاء اعتبار للعناصر السياقية التي تندرج في تلقيه، وكذا المكونات الواقعة في بنائه.**فالرواية قبل أن تكون أدبا فهي شكل من أشكال الثقافة،هي إنتاج كغيره من الإنتاجات الثقافية من حيث خضوعها للمتغيرات الاجتماعية والسياسية** [4] أي أنها تعبير عن ثقافة تعيش داخل مجتمع وتتفاعل معه سلبا وإيجابا. فهو مدونة وشكل لساني للتفاعل الإجتماعي، تبعا للمقام الذي أنتج فيه، وأيضا للعلاقات الإجتماعية والثقافية والمعرفية التي يندرج ضمنها.فالنص الروائي في تمظهراته التخييلية وأنموذجه التشكيلي ينتج فنا هو الأعقد من بين الأنظمة الخطابية الأخرى،حيث تتآلف فيه الأحداث والشخوص لتضع الوقائع في مواضع غير ثابتة.

فالنص الروائي قادر على خلق مسافة شفافة بين الواقع والتخييل أثناء فعل الكتابة، هذه المسافة التي تُحقق تفاعل القارئ مع العمل تفاعلا يحيل على إمكانية تلقي واقع جديد، سوف لن يظفر بجزئيات الصورة جاهزة، بقدر ما يعمل على خلقها بإعادة تركيبها وفق إمكانيات القراءة والتأويل، من منطلق الوعي بمعطيات الأدب الروائي كفن خاضع لعمليتي التفكيك والتركيب.وهذه

القصدية من فعل التسريد تحيل إلى المعابر التي تفرضها سلطة الكتابة .

لقد تحولت الرواية عبر سيروراتها التاريخية إلى نظام خطابي لايختلف عن أنظمة الخطاب الأخرى،بل واقترنت في كثير من الحيان بالسياقات التاريخية التي تمخضت خلالها،فهي كنظام خطابي تعتبر **مادة للإيصال والتواصل الثقافي بخلقها لعوالم افتراضية توازي العوالم الملموسة،وبذالك تؤكد على شرعيتها الخطابية في تأطير المعرفة ،حين تستدعى كإستشهادات وإستدلالات في سياق التمثيل، والجدل والدفاع عن المواقف**[5] لذالك فإن نشوء الرواية شكّل خيطا واحدا مع نشوء الإستعمار، حيث إتفقا على مبدأ الهيمنة المادية العسكرية، والهيمنة النصية على الآخر، باعتبار الرواية سردية تعيد تشكيل عالم تصبح فيه الذوات خاضعة لفعل الحكي، ضمن متخيل يعيد بناء تاريخ الذات لنفسها وللعالم. وتتضاف هذه السردية إلى أنماط المرويات الأخرى، ذات الطبيعة الشمولية التي اشتغلت حول نفي صحة المرويات الأخرى، وتعطيل فاعليتها داخل المجتمعات والثقافات، محاولة إصدار مروياتها وفرضها بالإكراه أو بالتدليج على مجتمعات تتباين ثقافيا وتاريخيا وسوسيولوجيا.فقد عملت آلية السرود التخييلية على نفي أية إمكانية لوجود عالم خارج إطارمايفرضه التخييل،وبذالك يصبح ذا قيمة ثقافية حين ينتظم خلف حبكة ثقافية، أو دينية،أو عرقية. فتخضع بذالك كل عناصر السرد لخدمة تلك الحبكة،التي تظل تتحرك في إعلاء قيم محددة مرتبطة بالذات المتصورة لتلك المواضيع،غي منسلخة عن المؤثرات التي تمارسها الظروف الإجتماعية والسياقات التاريخية،لتعكس الرواية بذالك قوة التمثيل الثقافي. فقد أدرجت الرواية باعتبارها أحد الأنواع للمرويات الكبرى من منظور ثقافي أكثر سعة من المنظور الأدبي بوصفها ظاهرة ثقافية تصوغ الوعي الجماعي،وتعبّر عنه،وتسهم في تشكيل صورة الشعوب عن نفسها وعن غيرها. والواقع أن تراكم التراث السردي للرواية قد أدى إلى ذالك فعلا في بعض الآداب والثقافات،فالمسار التمثيلي للرواية شكل نظي للمسار التمثيلي للملاحم والسيرالشعبية التي

يمكن اعتبارها مدونات رمزية تتمثل فيها القيم الثقافية والنفسية للشعوب.

الرواية وكتابة التاريخ :محددات التداخل والإنفصال:

لم تكن علاقة التداخل بين الرواية والتاريخ مقتصرة على التوغل في الماضي، بقدر ماتتجاوز حدود هذا الماضي الى مقاربته مع أهداف الحاضر في أي مرحلة من مراحله،وكأن استحضار الرواية للتاريخ يصبح من قبيل التوظيف العمدي الواقع والمتحالف مع أهداف حاضرة.وبهذا تصبح العلاقة بين النمط التاريخي والنمط التخييلي السردي شكلا من أشكال الإتفاق حول مغزى واحد، يمثل إعادة صياغة حركية المجتمع، وتحريك التاريخ وفق متطلبات رغبوية تعكس توجهات الأنا ومقصدياتها. **فالرواية بهذا الشكل مهما سعت الى التوغل في الماضي تظل على صلة بالحاضر ولايمكنها أن تتملص منه**[6]. فالحاضر يصبح صورة مكررة من الماضي، مع تغير الأشخاص والأزمنة والأحداث، لكنه يبقى محافظا على جوهره ليشكل تداخلا لحظة الوعي بين اللحظتين الماضية والحاضرة. وبهذا يسهم التخييل التاريخي في المرواحة بين النمطين،محيلا إلى وضعية لا تعني بالضرورة سرد ماحدث، بقدر مايصبح في وضعية تفسير ما يحدث.

إن الخيط الوجداني الذي يربط الرواية بالتاريخ يمكن له تخطي لحظاته ومفارقتها،ليفسح المجال لتأويل المتلقي الذي تصبح قراءته إنطلاقا من متخيله الرمزي الخاص، وداخل هذه العملية إما يحصل التفاعل وإما أن يستقر التباعد. **ففي جدل الكتابة والقراءة تتحدد علاقات قوى غير مفكر بها بالضرورة، ولكنها تتدخل في فعل الكتابة والقراءة بحيث يغدو هذا الجدل إما تكثيفا لإرادة هيمنية، وإما تعبيرا عن إرادة حوارية**[7].وعبر هذا التدخّل يتحرر فعل الكتابة من التاريخ الموضوعي إلى فعل ذاتي يفصح عن فراغاته التأويلية لدى متلقيه ليعيد إنتاج رموزه، وبناء أنساق مغايرة تتطابق مع واقعه المعيش دون الإنفلات من مرجعيات الماضي، كون المتخيل مجالا لتجلّي الرموز. فهو لا يكتفي بإعادة صياغة الأشياء أوترتيب الصور والحكايات،**لأنه بقدر مايورط**

الذات الفردية في عملية إنتاجه بقدر مايتجاوزها ليلقي باعتبارات المتخيل الإجتماعي [8]وهنا تبدوا فعالية الكتابة كآلية تنصيصية للواقع تخفي قناع الذات، وتفكّها من عقالها حيث يغدوا الواقع معها تحت سلطة رمزية تمثلها اللغة بكل انزياحاتها،يعطيها التخييل مجالا واسعا لإنتاجية مفارقة ومغايرة عن الواقع المعطى والحقيقي،لهذا فسؤال الحقيقة يكون أبعد مايكون عن فكر الروائي لحظة الكتابة،بل إن التبصّرات التي يحتويها هذا الفعل هي الوحيدة الكفيلة عن هذا السؤال. .

فالكتابة بالطريقة التي تفرضها الأطر التخييلية، تلزم الروائي الإحتكام إلى ضرورات الأطر الإيديولوجية، فهو محكوم منذ البداية- سواءا عن وعي أوعن غير وعي- لمنطق التدخل الذاتي في مجرى الحدث التاريخي، وهكذا سيتحول الحدث من الزمن الطبيعي الخطي إلى الزمن التاريخي الإبداعي، **كون الخطاب التاريخي المشكل روائيا يبدأ اشتغاله كنسق دال منذ لحظة تشكيله فهو ليس محض تواصل يتم فيه الإخبار بواقعة،بل يشتغل من خلال مدلولات متعالية يمررها الكاتب في موضوعه**([9]).

وإنطلاقا من هذا الرأي وبناءا على مستوى التحقق الفعلي بين زمن الماضي والمستوى الاحتمالي في الزمن التخييلي، لاتصبح قراءة التاريخ من قبيل إمتداداته فحسب، بقدر ما يتعدى إلى قراءاته الوظيفية. وبهذا يصبح التاريخ حسب **لويس روي** هو **رواية ماكان والرواية هي تاريخ مايمكن ان يكون**[10]. فالرواية بهذا المعنى تفرض أطرها الإحتمالية لما تمتلكه من خاصية الإنعتاق من الواقعي، فهي ممارسة تخييلية لا تفترض بالضرورة الصدق العقلي .

شكلت العلاقة بين التاريخ والرواية إلتباسا، لما تفرضه أطر الكتابة النصية وأطر الكتابة التاريخية الموضوعية، حتى وإن تمثل التاريخ في حد ذاته كنوع من الرواية لأحداث ماضية، ونمط من الحكاية عن شخصيات وتجليات اجتماعية وتاريخية، فضلا عن **كونه كاشفا للقانون الذي ينظم هذه الحوادث ويحاول ان يجد في حدوثها معنى يعطي لحوادث الماضي تسلسلا منطقيا وينير**

الحاضر ويضيئ بعض جوانب المستقبل[11]. وعليه فإن أي كتابة تاريخية لاتعدو سوى تمظهرا آخرا لفعل الحكي، وهذا مايُعد مادة أساسية لأي عمل تخييلي.

إن الرواية في حد ذاتها سرد لقيم، وسيرة تاريخ إجتماعي وحضاري. فهي تأخذ من هذا التاريخ خطوطا تعبر به إلى دلالات وتأويلات يتم توظيفها حسب مقتضيات إيديولوجية وثقافية، كون فعل السرد حسب **بول ريكور تبقى ارتباطاته محايثة لفعل الحبك**[12]، وماتفرضه هذه الإرتباطات من قيم تعبيرية تشعرنا بالإستعمال الأدبي، حيث تبني نظاما للذوات المنتجة مجاورة لأنظمة النصوص المنتجة.فالتاريخ وان امتلك الموضوعية كمشروع تحديدا، فان **سؤال الموضوعية لا تعرفه براءة الروائي**[13]. وتتضاف البراءة في فعل الكتابة إلى مجموع القطائع الإبستمولوجية بين سرد التاريخ الموضوعي وتحبيكه التخييلي، لتشكل

في النهاية فجوة يعبرمنها ماهوإيديولوجي الذي يرتبط بوجود الجماعات ومصيرها ومصالحها.

الرؤية إلى الشرق: مرجعيات الإستبداد المستنير وقيم التحيز:

شكلت أوربا والغرب عموما الأرضية الخصبة لظهور مفهوم الإستبداد الخيّر أو الإستبداد المستنير، الذي تبلور وفق قيم التنوير وأطروحاته العقلية والسياسية، حيث شملت التسامح الديني والحرية الفردية وتشجيعا للفنون والتعليم والإكتشافات. **فالتنوير حركة اجتماعية وعقلية ويمكن ان يفهم بصورة أفضل بفحص ديناميات الطبقات، والمؤسسات، والعلاقات الاجتماعية، والقوى المادية التي تضافرات معا لتدمر الأنظمة القديمة**[14].ففي هذه المرحلة مجد فيه الإنسان الأوروبي قيما جديدة هي العقل والتقدم،واتخذهما معيارا لتأويله للعالم،حيث أضمر بذالك رغبة في ترتيب الشعوب في سلم التطور،يحتل الغرب هرمها ،وتتذيل باقي الأمم هذه التراتبية، وبذالك اعتبر التقدم غاية

التاريخ ،حيث يتم في ضوءه الحكم على الماضي وعلى الثقافات الأخرى ،ويصبح الغرب قياسا مرجعيا لتاريخية الثقافات الأخرى ،وبذالك فقد وفّر التنوير المستندات الإيديولوجية للمشاريع التي حاول الغرب تصديرها كنمذجة للغير، ومثّل بذالك تاريخا جديدا حاول ظبط التاريخ البشري من خلاله، بإصداره لجملة من الفعاليات والتبريرات على مستوى الممارسات عبر التاريخ. فلا غرو أن تشارك الرواية كشكل من أشكال الفعالية العقلية في بلورة التاريخ الجديد، وصوغ التاريخ على حسب الشخوص والأحداث النصية التخييلية، فكان الآخر ماهو عليه نصا وليس ماهو عليه واقعا. حيث تمثّل الأثر البلاغي والتخييلي في كتّاب التنوير على خلفية عدوانية وتبخيسية للآخر،مساهمة بذالك في بناء العوائق والتفسير الخاطئ لموضوعات كتاباتهم، فليس من قبيل المصادفة ان نجد شخصية **روبنسون كروز** التي كتبت سنة 1719 من أشهر الإبداعات الأدبية للتنوير، فقد عكست هذه الشخصية التمثيل الواعي للعلاقة بين التنوير وباقي العالم، فالخبرة بغير الأوروبي تتشكل وفق مفهوم خبرة الغريب التي تنطوي على فكرة إستغلال الطبيعة والسكان في البلدان الخارجة عن الجغرافية الأوروبية، وهي مرجعيات تبلورت وفق الثقافة التنويرية ذاتها من جهة ،وعمليات الإحتكاك التي مورست إبان مراحل الكشوفات الجغرافية ،بدءا من **كريستوف كولومب** وما تبعها من علاقات إقتصادية وتجارية لاحقا، وإرساء قواعد التوسع في المستعمرات الأمريكية والإفريقية والشرقية.

لقد واجهت أوروبا الآخر الغريب والمختلف بخليط من الدوافع والمثاليات، بل ان الإهتمام بالعالم الشرقي كما يقول **دانيال نورمان شابته فجوات أملتها البناءات الثقافية والسياقات الحظارية الغربية.** [15] ولم تخلو هذه النظرة بما تحمله من تحيزات من صناعة الآخر وفق رؤية رغبوية، أملتها شروط المركزية الغربية ذاتها المستندة أساسا إلى قيم التنوير، حيث ركزت نقاشاتها حول الجدل الذي أثارته **فكرة وجود طبيعة عالمية للبشر، والجدل المرتبط بمعنى التاريخ البشري، وأخيرا النقاش الذي تولد حول قيمة وطبيعة الحضارة** [16].

فالآخر عموما والشرقي تحديدا لم يخرج عن المختبر التنويري الذي شرعن لنفسه فهمه ومعرفته وفق الإدعاء بأحقية النموذج الأوروبي وصحته، مقارنة مع التجارب البشرية الأخرى.لذالك لا تستبعد الكتابات التي دارت في هذا العقد، والأطروحات التنويرية الخيّرة من **مونتيسكو الى فلوبير وروسو**[17] فلسفة وإبداعا، التساؤلات مهمة حول العلاقة مع الآخر، وماحملته هذه الكتابات من بعد إيديولوجي لا يخلو من تحيّزات وأحكام مسبقة. فالتنوير في حد ذاته كمصطلح لايخلو من فجوات يتدخل فيه الذاتي والإيديولوجي، لما يقابله من دلالات الظلام والجهل والتخلف للآخرين.وبهذا تحركت النقاشات حول مفاهيم العبد ،والحضارة، والطبيعة، والبدائية. التي أسست كلها لاحقا لركائز علم الأنثروبولوجيا، وساهمت هذه المعرفة في تحديد تمايزات بين العالم الأوروبي و بقية العالم ،وشكلت بعدا قيميا وماديا ومعنويا إرتكزت عليه الرؤية الغربية نحو العالم.

حاولت أوربا وفقا لإستجابات الآخر الغريب تصدير نموذجها التنويري خلال مرحلة الإستعمار مرتكزة على مبررات دينية وعقلية، في شرعنة الفعل الإستعماري وإحتواء الآخر طبيعيا وثقافيا، بإعتبارها تجسيدا للمفاهيم التنويرية للإستثمار، والتكسّب، والإستغلال الإقتصادي، حيث توارت هذه المفاهيم خلف البراءة العلمية والأدبية التي حاول الخطاب التنويري تلقينها وإقناع الآخرين بها، **كشرعية على مفهوم الإستثمار الاستعماري**[18].فالخطاب ينشأ وفق النسق الحضاري الذي يتبلور فيه حيث يحمل في طياته رؤية إيديولوجية تبعده عن البراءة والموضوعية حيث يتأسس على تعالق تضادي بين الأنا والآخر، وهذا التضاد ينتج تراتبية وتعاليا يشكل عبر الزمن متوالية للمرويات الكبرى، التي تمارس إكراهاتها التاريخية والثقافية على الآخر. وفي المقابل **إقرارها بوجود تاريخ خاص ومطلق للغرب** [19].وهذا يحيل جزافا إلى تخلي تلك المجتمعات على قدراتها، وتفريغها من مستوى الخطاب حيث يضاف هذا الفعل الإستبدادي المعنوي إلى الإستبداد المادي الذي مارسه الإستعمار المادي لاحقا.فقد قام هذا

الفعل على الركائز التنويرية ومفاهيمها حول الذات المتعالية،بوصفها مفهوما لغلبة وجهة نظر الذات وصوابها، وذالك عبر **تفعيل وإستنباط الأنساق الداخلية التي تتحكم بعملية الفكر، وإبراز الأنظمة المسيطرة والموجهة والكامنة في الأحداث والظواهر، من خلال إنتاج مقومات ثقافية ودينية وعرقية تؤصله بوصفه كيانا موحدا ومستمرا ،وكذالك من خلال إختزال العالم**[20]وكانت هذه الفعالية في الخطاب الغربي علميا كان أم أدبيا، ضربا من الممارسة الفكرية و المقاصد الرغبوية التي إقتضتها حاجات الغرب وضرورياته. فقد رتّبت هذه المعطيات الثقافية وفق النظم العقلية والسنن الغربية المهيمنة، ومن ثم أدرجت في تكييف عبر آليات خطابية متعددة ومتنوعة، وشكل الأدب بشكل عام والرواية التخييلية فصولا بارزة منها في التكييف الإيديولوجي والثقافي للآخر الشرقي.

المتخيل الإستشراقي وإستبداد الصورة:

إن أكثر الرحالة الغربيين الذين بحثوا عن المغامرة خارج أوطانهم، سواءا أكانوا رحالة أم حجاجا أم عسكريين أم جواسيس، عادو إلى أوطانهم وهم يحملون إرثا عن الشرق، يحمل في طياته سمات متنوعة ومختلفة جغرافيا ودينيا وسياسيا وثقافيا، وبالرغم من إفتقارها إلى الواقعية والحقيقة **بقدر ماتفيض بالخيال عن الشعوب الشرقية ومناطقها إلا أنها عكست روح التأثر بالدعاية السياسية والدينية، حيث تجلت في تصويرهم للشرق تصويرا مشوها** [21].

وبذالك إنكشفت بنية الخطاب المتمركز حول الذات في ثنايا الكتابات الإستشراقية التي قدمت صورة مشوهة للشرق.ولايمكن تفسير هذه العملية إلا بكونها إستجابة لدوافع المركزية الغربية وقولها بالخصوصية المطلقة لتاريخها، الذي أنتج خصوبة فكرية ومادية وإيهام الآخرين على أن مسايرة تاريخ الغرب لن يتأتى الا بالأخذ بالأسباب ذاتها التي أخذ بها الغرب.

لقد مثلت الرحلات الفكتورية تعاليا للذات الأوربية بتصويرها للتفوق الأوروبي ودونية الآخر، **وهي سلسلة من الأحكام التي إبتكرها الفكتوريون**[22]وهي أحكام لاتقل أهمية على الممارسات اللاحقة على

الأراضي الاستعمارية.

وبذالك شكل المتخيل الإستشراقي إطارا أدبيا، ورؤى تأرجحت بين الرومانسية والأحلام، والصور الباهتة لبلاد كئيبة وغامضة الملامح، وشخوص لا تعبر سوى على إفتقاد الحس الحضاري،ومن ذالك وجب إعادة صياغة هذا الآخر بإمتلاكه وإمتلاك كينونته وثقافته لإعادة صياغته وفق النموج الغربي وأطره، وهذا الزعم يخفي في طياته توجهات الأنا في نطاق التفكير الاستعماري. و يمكن القول أنه على المستوى التاريخي عززت البنية التخييلية والصور المنتقاة والأحكام على الآخرين بنية الإستعمار، **لدرجة أن البنية الإستعمارية مثّلت نوعا من إعادة إنتاج لهذه الثقافة** [23]. بمعنى أن التصوير والأحكام قد غذّت المخيّلة العامة للمستعمر الغربي وساهمت في ممارستها على مستوى الواقع. وقد تعاضد في هذا الفعل مجموع ممارسات مؤسساتية وفردية عززت مفهوم الفعل الإستشراقي.

يحدد **إدوارد سعيد** في كتابه **الإستشراق** بإعتباره **تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب**[24]بل يذهب إلى أبعد من ذالك بوصفه **أسلوب غربي للسيطرة على الشرق،وإعادة هيكلته وإمتلاك السلطة عليه**[25] وهكذا فان **إدورد سعيد** يحدد الغرب بوصفه كيانا متجانسا مع ذاته، بإمتلاكه جوهرا،و مشروعا، وإرادة .ويحدد الشرق بوصفه موضوعا عسكريا ونصيا. وهذا التمييز إنما هو تمييز بين معرفة وموضوع تلك المعرفة، فالإستشراق كخطاب وإنشاء لايعكس الحقائق بقدر مايدرج تمثيلات تخفي القوة والمؤسسة التي أنتجته، أو التي يوظف لصالحها والتي تبشر بكونية التاريخ الأوروبي وشموليته وبذالك **يمثل تكاملا في الموقف تجاه الشرق وبنيته الإجتماعية ونظمه التفكيرية** [26]. وهو بذالك يمثل تبادلا حيويا بين الأفراد والمؤسسات التي أنتجت الكتابة الإستشراقية في حدودها الفكرية والتخييلية. فالتسلط إحتاج الى لغة تصور الأفعال وفق إيديولوجية خلخلة المواقع، فتصور الأوروبي كحامل لرسالة التمدن والحضارة، عبر توظيفات مخادعة توظف التخييل، والعلم، والتاريخ خدمة لهذا

الغرض،وعليه فإن الإستشراق يتموضع كنظرة ثقافوية وكتعبير عقلي عن اللقاء الذي حصل بين الغرب والشرق،بحيث أنتج جملة من المعارف توارت خلفها كل أشكال الهيمنة وتبريراتها،ومن هنا فإن إدوارد سعيد يفنّد براءة المعرفة الإستشراقية مستشهدا بأن **توسع الإستشراق ومؤسساته تلازم مع توسع النفوذ الأوروبي نحو الشرق**[27] لذالك فإن الحقول المتعددة التي تناولها الإستشراق وطبيعة الناس القائمين عليه وإختلافهم- تبعا للمراحل التي مرت بها الظاهرة الإستشراقية- فإن صفة الموضوعية والعلمية تكاد تنتفي على هذا المجال،بل يمكن إدراجها كممارسة ثقافية تجيز التمثيل للثقافات الأخرى بكل مكوناتها، لأن الطرائق الجديدة في تناول الثقافات الأخرى ومنها الشرق تحديدا **لم يكن وليد مايسمى بحركة التاريخ الجديد في أوربا الذي تطلب توظيف الأدوات الأكاديمية والوثائق العلمية والأدبية،بل أيضا بسبب الحاجة الذهنية الأوروبية للمقارنة والمقاربة مع الأخر**[28] إذن فالمشروع الإستشراقي تمثل في الكيفيات التي التي حاولت فيه المعرفة الغربية السيطرة على الآخرين متعاضدة مع فكرة التاريخ المركزي من جهة، وارتباطاتها مع المؤسسات الإستعمارية من جهة أخرى ،حيث اشتغلت خلف خطاب معرفي علمي وتخييلي أنتج بنية ضدية بين أوربا والشرق،وهي جدلية مهمة أفرزتها مساءلات الإستشراق حول علاقات النص بالواقع وبالوعي، كون أن هذا الواقع عندما يتحول من مجاله الطبيعي الواقعي ويدرج ضمن تمثيلات وتصويرا ت فإنه منطقيا يفقد الكثير من حقيقته،لأن السند النصي يصبح هو المرجعية الوحيد ة للحكم على هذا الواقع.وبطبيعة الحال فإنه يبرز الذات الغربية الفاعلة في تكوين تصوراتها على الآخرين.

لقد اصطفت التمثلات عن عوالم الشرق السياسية بوصفه مكانا للقبائل والقوى العسكرية المتشتتة والأنظمة السياسية الملكية، التي تلعب فيها العصبية والولاءات دورا في إتساعها أوإنحصارها، ومكانا جغرافيا ممتدا من صحاري وجبال وبساتين من النخيل وقطعان من الإبل تجوب الفيافي، ومكانا ثقافيا

يجمع متناقضات من العادات والتقاليد الغيبية وعمران بدائي وفوضوي ،حيث إن هذه التمثيلات لعبت دورا في رسم الصورة المناقضة للغرب قياسا على كيانه السياسي والجغرافي والثقافي . وبذلك شكلت مخزونا تصويريا ورؤية متحيزة نحو الشرق، تمتزج فيها الإدراكات المسبقة بالمعطى الواقعي، من عادات وعقليات وهي نوع من الإستمراية المنظمة لفعل الإستشراق الأكاديمي الذي ادرج الشرق في إطار فروع الدراسة العلمية،ومثلت بذالك عملية نقل تكثفت فيها حالات من التأويل والتمثيل، وأدرجت هذه العملية برمتها في مجموعة من الممارسات الثقافية تمثلت في الإزاحة بين الثقافة المهيمنة والثقافة المهيمنَة، وبناء أنظمة ثقافية تستند الى مرجعيات تخييلية ،حيث مكّنت من تفعيل فكرة البناء المتكرر للأخر وصناعته وفق حاجات الغرب وضروریاته التخييلية. لهذا فغالبا ما توصف الصور المتادولة في الأدبيات النقدية على اعتبار أنها نمطية لكن المتمعن للمجال وللسياق الذي أنتجت فيه يجد أن مفهوم التنميط يكون نوعا من المهادنة مع هذه التوصيفات .فعندما نصف الصورة بأنها نمطية يذهب الحكم على أنها ارتبطت بفترة محددة من تاريخ أوربا في تعاملها مع الشرق، لكن الحقيقة تضهر حين نكتشف أن عملية التصوير دائما كانت تمليها ضرورات تاريخية وثقافية، فالشرقي الذي وصف في مطلع القرن التاسع عشر بأنه عنيف وقاس،يعاد بناءه في فترات لاحقة بصفات لاتخرج عن تصور العنف والقسوة ولكن بمصطلحات رديفة تقتظيها ضروريات تاريخية.وعلى هذا فلا يمكن توصيف الممارسة الرؤيوية للآخر إلا من قبيل إعادة تفعيل ثقافي وبناء مستمر ومتجدد تندرج وفق مفهوم **جان فارو** بأنه **إختراع تاريخي**[29]. فسريان الإنتاج الأدبي وإعادة إنتاجه داخل الثقافة وسيروات التاريخ، يمكّنه من اكتساب شرعية سلطوية تقوم على أساسها أطروحات فكرية وتحليلات إجتماعية وأحكام قبلية تؤسس لبنية ثقافية لدى جماعة ما وتصبح معيارا في تعاملاتها خاصة في لحظات ردود الأفعال بين الثقافات لحظات تجاذبها وبذالك تسهم في التقريب بين الثقافات أو الإسهام في تأصيل مفهوم الإفتراق والتضاد.فإذا خبت هذه المنظومات في لحظة تاريخية ما

يلجأ المستشرقون الى بناء أنظمة جديدة تمكن من الحفاظ على هذه الآلية الدفاعية بدءا من تهيئة الكراهية إلى ممارستها[30] فالمغزى ليس في أن نورد تجميعا للصور السلبية التي دأب الغرب على توصيف الشرقي بها،بقدر مانستجلي المحددات القيمية لوضع الآخر داخل سياق تاريخي،بمعنى أن المسالة لاتعدو مسألة لعب لفظي مارسته الخطابات العلمية والأدبية ،ولو كان الأمركذالك فإنه لا يتعدى مجرد تمثيل سردي وتخييلي، ولاما كان لهذه التنميطات أهمية، كوننا سنجد لها مبررات نفسية أو فكرية،أو حتى كونها نزعات فردية منعزلة،لكن المسألة تصبح أشد وطأة إذا ما أدرجت هذه التنميطات في سياق حضاري وتبادل ثقافي بين الأمم والشعوب،كون هذه الممارسات في موضعتها التاريخية ترسخ لمجموع قيم تصبح مع مرور الزمن(التاريخ)معيقات وحواجز نفسية تشبه مايسميه **إبن خلدون** بعقدة بالتبعية للغالب،أو مايسميها **فرانز فانون** بعقدة النقص تجاه المستعمر،وينجر عن هذا الفعل أن مسألة الإعتراف بالآخر تبقى مجرد وهم. وهنا يضهر نوع من الإستبداد الملتبس بقيم الحق والخير، التي شكلت فيما بعد إستمرارا للهيمنة الثقافية والوجودية التي مازال الشرق يعاني من تبعاتها التاريخية إلى اليوم.

خـــاتمة:

شكلت الرواية بنية ثقافية مكتنزة المرجعيات والسياقات التي أنتجت ضمنها، والتواريخ التي تفاعلت معها وبوصفها نتاجا للتفاعل بين المؤسسات الرسمية وأنظمة الخطاب الأخرى التي لم تتورع في المساهمة في تشييد رؤية تشوبها تحيّزات إيديولوجية ومركزية.

فعلى مستوى التجاذب التاريخي إمتلكت الرواية أحقية في تطويع التاريخ، وصوغه بما يتفق مع توجهات السرديات الكبرى في تعاليها على الواقع والتاريخ، وذالك بأن عملت على إحداث أعطاب تاريخية على مستوى مسيرة التاريخ الإنساني، حيث مكّنها من ذالك خصوصيتها اللغوية وماتمثله من قيم رمزية

وتاويلية تمنحها الحق في إعادة صوغ التاريخ والأحداث، وتمثيل الشخوص بما يناي في الواقع أوبما يوافق المقاصد الرغبوية .

أما على مستوى التمثيل فلم تتحرج الرواية - بوصفها فنا تخييليا- من إعادة إدماج المقولات الفكرية وسياقات الحاضنة الاجتماعية، في بلورة رؤية تتساوق إيديولوجيا مع الثقافة الجمعية بإنتاجها متخيلا عن طريق تأثيثها للعوالم،وبثها صورا في اللاوعي الجماعي حتى يصبح بنية ثابتة داخله،وفي الوقت نفسه تتساوق مع المؤسسة الإستعمارية في شرعنة الفعل الإستعماري بطرح التبرير الأخلاقي، وبعث قناعات حول المهمة التحضيرية للمستعمر لتصبح الرواية بذالك نوعا من الإستعمار الناعم يتفق ومفهوم الاستبداد المستتير الذي أسسته مقولات التنوير.

الهوامش:

1- آنيا لومبا :**في نظرية الإستعمار وبعد الإستعمار الأدبية** ترجمة محمد عبد الغاني غنوم،دار الحوار للطباعة والنشر ،الطبعة الأولى،اللاذقية ،سوريا.2006.الصفحة58.

2- سيد إسماعيل ضيف الله:**آليات السرد بين الشفاهية والكتابية**،الأمل للطباعة والنشر،الطبعة الأولى'القاهرة،مصر،2008.الصفحة 94.

3- - ميخائيل باختين:**الخطاب الروائي**:ترجمة محمد برادة،دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،القاهرة،مصر،1987.الصفحة 52.

4- أحمد الدغمومي:**الرواية المغربية والتغيير الاجتماعي:دراسة سوسيو ثقافية**،الشركة العالمية للكتاب ،إفريقيا الشرق،الطبعة الأولى،الدار البيضاء، المغرب .1991.الصفحة 17.

5- أحمد فرشوخ:**تأويل النص الروائي:السرد بين الثقافة والنسق**،مطبعة النجاح الجديدة،الطبعة الأولى،الدار البيضاء المغرب.2006.الصفحة37.

6- محمد القاضي:**الرواية والتاريخ:دراسات في تخييل المرجعي**،دار المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، تونس، 2008.الصفحة 26.

7- محمد نور الدين أفاية:**المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب**،دار المنتخب العربي

للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت لبنان.1993.الصفحة08.

8- **المرجع السابق**، الصفحة09

9- عبد السلام أقلمون:**الرواية والتاريخ:سلطان الحكاية وحكاية السلطان**،دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، طرابلس، ليبيا ، 2010.الصفحة 43.

Pierre-louis-rey **le**
10**Reman**.hachette.paris.france.1992p.12.-

11- عبد الحميد صديقي: **تفسير التاريخ**:ترجمة كاظم جوادي،دار القلم،الطبعة الأولى، الكويت، 1980.الصفحة 12 .

12- بول ريكور:**الزمان والسرد :الحبكة والسرد التاريخي**، الجزء الأول، ترجمة سعيد الغانمي، مراجعة، جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، طرابلس، ليبيا.2006الصفحة275
.

13- **المرجع السابق، الصفحة 277**

14- غيرترود هيملفارب:**الطرق إلى الحداثة :التنوير البريطاني والتنوير الفرنسي والتنوير الأمريكي**، ترجمة محمود سيد أحمد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006 ، .الصفحة08.

15- نورمان دانيال:**إهتمام الغرب بالإسلام**، مجلةعيون المقالات، العدد الثاني، الدارالبيضاء، المغرب، 2008.الصفحة 13

16- دوريندا أوترام:**التنويـــــر**، ترجمة موريس إبراهيم، دار الفارابي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت لبنان.2008.الصفحة 205

17- جورج طرابيشي:**معجم الفلاسفة**، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، بيروت ، لبنان ، 2002.الصفحة 471.

18- دوريندا أوترام:**التنوير**، الصفحة 221.

19- عبد الله إبراهيم:**المركزية الغربية** ، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى ، بيروت لبنان ، 2010، الصفحة39.

20- **المرجع السابق**، الصفحة.41.

21- ناجي عويجان:**تطور صورة الشرق في الأدب الإنجليزي**، ترجمة تالا صباغ، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى ، بيروت، لبنان. 2008.الصفحة.09

22- رنا قباني: **أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد** .ترجمة صباح قباني ،الطبعة الثالثة،دار طلاس للنشر، سوريا.1993.الصفحة 23

23- **المرجع السابق**،الصفحة26.

24- إدوارد سعيد:**الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق**،رؤية للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى القاهرة ،مصر.2006الصفحة 46

25- **المرجع السابق** ،الصفحة47.

26- سالم يفوت:**حفريات الإستشراق:في نقد العقل الإستشراقي**،المركز التقافي العربي الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.1989.الصفحة 59.

27- إدوارد سعيد :**الإستشراق:المفاهيم الغربية للشرق**،الصفحة47 .

28- محمد الدعمي:**الإستشراق:الإستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي**،مركز دراسات الوحدة العربية،الطبعة الأولى،بيروت،لبنان.2006.الصفحة09.

29- جان فارو:**الآخر بما هو إختراع تاريخي:كتاب العربي ناظرا ومنظورا إليه**، تحرير الطاهر لبيب،مركز دراسات الوحدة العربية،الطبعة الثانية،بيروت لبنان،2008.الصفحة.45.

30- علي بن إبراهيم النملة:**صناعة الكراهية بين الثقافات وأثر الإستشراق في إفتعالها**،دار الفكر،دمشق سوريا،2008.الصفحة124.